PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 65(5): 593-609
ISSN: 1553-6939

Penetrating the linguistic obstacle in the Algerian novel written in French: Between the obsession of estrangement and the fervor of belonging.

Dr. Sata Nedjim[1]

[1]PhD in Contemporary Arabic Literature, Faculty of Arts and Languages, Mohamed Kheidar University Biskra (Algeria).

The E-mail Author: sattanad@gmail.com

Received: 01/2024 **Published: 05/2024**

Abstract:

The Algerian novel written in French emerged as a result of the lifting of the ideological blockade experienced by the Algerian people under the French colonizers, as well as the continuation of socio-cultural and humanitarian pressures and violations during the "Black Decade". The Algerian novel written in French has faced blows and criticisms that almost undermined its identity since its inception within the colonial era. Doubts were raised about its authenticity because it resorted to the French language to achieve its aspirations and hopes of belonging in the homeland of identity, thereby providing avenues for global openness without being constrained by customs regulations.

From the beginning, research has sought to refute the biased propaganda that attempted to alienate the Algerian novel written in French as part of a language isolation policy. Therefore, it was necessary for the research to initiate its course with a chronological overview of the origins of the Algerian novel written in French, followed by an examination of the dualities that the Algerian novel written in French posed between belonging and estrangement, without neglecting to define the significance of both terms. Additionally, the research aimed to present practical models of the Algerian novel written in French in order to provide the study with critical comfort within the context of objectivity.

Thus, the research relies on a descriptive methodology based on analysis and inference mechanisms that enable an exploration of the direct correlation between the aspirations of the Algerian novel written in French and the concerns of the geographic region that encompasses Algerian sociocultural and anthropological references.

The research also addresses several issues, including the following summarized questions: Is the Algerian novel written in French Algerian literature or French

literature? Has the Algerian novel written in French been able to keep up with global literature and follow its path?

The research has led to various closely related results, including: Despite attempts to alienate the Algerian novel written in French from the homeland of Algerian identity, this type of novel remains a valuable contribution to Algerian literature, regardless of the diversity of references and linguistic differences.

Keywords: Algerian novel; French language, linguistic mandate; accountability alienation; affiliation Globalism.

اقتحام العقبة اللّغوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، بين هاجس الاغتراب وهوس الانتماء.

د. ساته نجيم[1]

[1]دكتوراه في الأدب العربي المعاصر كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير بسكرة (الجزائر).

ملخص:

ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بموجب رفع الحصار الأيديولوجي الذي عاشه الشعب الجزائري تحت وطأت المستعمر الفرنسي، وكذا استمرار الضغوطات والانتهاكات السوسيو ثقافية والإنسانية زمن العشرية السوداء.

وقد تلقّت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ضربات وانتقادات كادت تُزوبع هويتها منذ أن نشأت في كنف الحقبة الاستعمارية، حيث أُثيرت شكوك حول أصالتها، كلّ ذلك لأنها توسلت اللغة الفرنسية لتحقيق تطلُّعاتها ومأمولها الرامي إلى أرضنة الانتماء في موطن الهوية، مما يُتيح سُبل الانفتاح على العالمية من دون إمساك للدفاتر الجمركية.

حيث سعى البحث منذ البداية إلى تفنيد الدّعاية المغرضة التي حاولت تغريب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ضمن سياسة العزلة اللغوية، لذا كان لزاما على البحث أن يستهل تلافيفه بمسار كرونولوجي لبواكير الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ثُمّ مُساءلة الثنائية الضدية التي تطارحت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بين الانتماء والاغتراب دون الإغفال عن تحديد دلالة المصطلحين، كذلك توخى البحث تطارح نماذج تطبيقية عن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بُغية تمتيع الدّراسة بالراحة النقدية في سياق الموضوعية.

وعليه يتوسل البحث المنهج الوصفي القائم على آليات التحليل والاستقراء التي من شأنها الوقوف على مدى التناسب الطردي بين تطلعات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وانشغالات الرقعة الجغرافية الآهلة بالمرجعيات السوسيوثقافية والآنثربولوجية الجزائرية.

كما يطرح البحث عدة إشكالات نوجز منها:

هل الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أدب جزائري أم فرنسي؟، هل تمكّنت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من مجاراة الآداب العالمية والنّسج على منوالها؟.

وقد أفضى البحث إلى نتائج جمام نوجز منها عن كثب: رغم محاولة تغريب الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية عن موطن الهوية الجزائرية، يبقى هذا النوع من الرواية مكسبا يُعتدّ به للأدب الجزائري بغض النّظر عن تباين المرجعيات واختلاف اللغات.

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية؛ اللغة الفرنسية، الانتداب اللغوي؛ مساءلة؛ الاغتراب؛ الانتماء؛ العالمية.

1.مقدمة:

حاول الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الجزائرية منذ أن وطئت قدماه الجزائر، فسّخر في سبيل ذلك كلّ الخطط اللّعينة والأساليب المراوغة الرّامية ظاهريا إلى تمدين المجتمع الجزائري وجعله أكثر انفتاحا على المثاقفة العالمية، حيث عمد المستعمر الفرنسي إلى عزل الجزائريين عن اللّسان الرّسمي الناطق باسمهم، والمُعز لهم في الخطاب، وذلك من خلال سياسة شاملة تمثلت في تعليم اللّغة الفرنسية لغير الناطقين بها.

وقد وُئدت هذه السّياسة في المهد فسرعان ما أدارت ظهرها لفرنسا التي حاولت تعليم الجزائريين فنون السّباحة في حوض جفت مياهه العكرة، ويتّضح ذلك في نبوغ أدباء جزائريين متخرجين من المدرسة الفرنسية أمثال: محمد ديب، مولود فرعون، مالك حداد...، حيث قارعوا أجراس اللّغة الفرنسية، وجعلوها مطواعة في التّعبير عن رؤاهم الحالمة بوطن تسكنه الهوية الجزائرية، فراحوا يُجسدون هذا الانتماء الأصيل في رواياتهم المتمخضة عن التشبث بالعادات والتّقاليد الجزائرية علاوة على تصوير آلام وآمال الشعب الجزائري الذي تعرض إلى محاولة اغتصاب ثقافي وعرقي وديني.

إنّ مشروع المسخ الحضاري الذي مهّدت له فرنسا بفرضها للّغة الفرنسية كلغة رسمية بالجزائر أدى إلى مجازفات باءت بالسّلب على فرنسا نفسها، ويتمحور بيت القصيد في عدم تمكّن المثقفين الفرنسيين من استيعاب المحمول الدّلالي والرّمزي للرّوايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية خاصة لدى محمد ديب، حيث اعتبرتها السّاحة النّقدية الفرنسية آنذاك غامضةً / مكثفةً / مرمزةً / مشفرةً / مؤسلبةً، فأقرّت بصعوبة فكّ شفراتها.

لقد أراد المثقفون الجزائريون ضرب فرنسا في جذورها، وكأنّهم يردّون عليها بالبند العريض: مدّني وأرضني لغتك في بيئتها الأم، وإلاّ فدعي الأمر لنا؟!؛ عبارات صاخبة كانت أشدّ وقعًا على فرنسا من اقتحام ألمانيا عمق باريس في خمسة عشر يوما فقط؛ كما أنّ هذا الحدث الأخير كانت له حسناته فكثيرا ما يتسلح المحارب بأسلحة العدو أيا كان نوعها، فالمهم والأهم هو الظّفر بفصل الخطاب، هذا ما أشاد به الكاتب مولود فرعون في تصريح له: " أثناء الحرب العالمية الثانية حدثت أشياء كثيرة شاركنا نحن الجزائريين فيها، فشعرنا على إثرها بتهييب وابتهاج؛ أنّ خروجنا من المأزق ممكنا، فخرجنا من ذلك المأزق بالكتابة قبل أن نخرج منه في الواقع"[1]

وبذلك تمكّن الرّوائيون الجزائريون من إبطال الادّعاءات المجافية لحقيقة الانتماء اللّغوي، مؤكّدين أنّ اللّغة براء من الانتماء الأيديولوجي، فهي ملك لمن يُطاوعها بصرف النّظر عن انتمائه ومرجعياته، هذا ما انتصر له الدّكتور عبد الله ركيبي حينما ردّ على مَن زعم أنّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هي أدب فرنسي بحت: " إنّ الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية قد وُجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة، وهو إن كتب بلغة أجنبية فإنّه عبّر عن مضمون جزائري، وواقع وطني الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا"[2].

ثمّ إنّ رواد الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية صرّحوا في أكثر من موضع أنهم كانوا مضطرين للتّعبير باللغة الفرنسية تدويلا للقضية الجزائرية، علاوة على الاستجابة لصيحات تُنادي بالأدب العالمي القائم على احتكاك الشعوب وتبادلها الأثر الفنّي، وإن لم يقم بينها الودّ الصادق.

وعليه يسعى البحث إلى وضع حجر الأساس الذي يُحدّد معالم الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، وذلك من خلال اتّباع خطة مرنة منطلقها الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أثناء مرحلتي الاحتلال

والاستقلال، ثمّ التّعريج على الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بين الواقع والمأمول، وصولا إلا مَرصد البحث حيث تمّ تطارح الثنائية الضدّية للرّواية الجزائري المكتوبة بالفرنسية بين التّأصيل والتّغريب.

وعليه يتوسل البحث المنهج الوصفي القائم على آليات التّحليل والاستقراء التي من شأنها الوقوف على مدى التّناسب الطردي بين تطلعات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وانشغالات الرقعة الجغرافية الآهلة بالمرجعيات السوسيوثقافية والآنثربولوجية الجزائرية.

كما يطرح البحث عدة إشكالات نذكر منها:

إذا كانت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ردة فعل مُزلزلة توخت الرّد على سياسة المستعمر بلغته، فلماذا استمرت كتابة الرّواية الجزائرية باللّغة الفرنسية غداة نيل الاستقلال؟.

هل تمكّنت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من التّعبير عن الواقع الجزائري المأزوم بلغة أجنبية؟.

تُرى لماذا توسلت الرّواية الجزائرية اللّغة الفرنسية؟، هل معنى ذلك أنّ اللّغة العربية قاصرة في تمثل مقتضيات الفن الروائي؟.

هل تُعدّ اللّغة من مقومات الهوية؟، ما الطائل من التّعبير عن قضايا جزائرية بلغة فرنسية؟.

هل الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أدب جزائري أم فرنسي؟.

هل تمكّنت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من مجاراة الآداب العالمية والنّسج على منوالها؟.

هل أوجدت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية لنفسها مكانا ضمن صرح الآداب العالمية؟.

2. الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية؛ أثناء مرحلتي الاحتلال والاستقلال:

إذا نظرنا في إشكالية الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية فينبغي علينا تطارحها ضمن مرحلتين زمنيتين هما/ مرحلة الاستعمار ومرحلة الاستقلال.

1.2 الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أثناء الحقبة الاستعمارية:

مرّت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كغيرها من الأجناس الأدبية بمراحل كشفت عن مسارها الانتقالي من الضعف والاضطراب والخلخلة إلى التبلور والنّضج، فعادة ما تكون البدايات ضعيفة، وعليه يلحظ الدّارس لصيرورة الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية انكبابها في مرحلة الإرهاصات على تداعيات المشهد الأدبي المناهض للمنزلق الخطير الذي روّج له المستعمر الفرنسي، من خلال مشروع روائي غربي يفنّد صور الواقع المرير على الأرض السّليبة، لذا لم تكن الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بادئ الأمر ذات معمار فني متناسق ومنسجم، نظرا لإيلائها – كما قلنا- اهتماما بطابع المصادرة على المطلوب، وهو الانتماء بمعناه التأثيلي.

ومن المحاولات الأولى التي حملت على عاتقها تصوير أيادي الغدر تنهش المُقوّمات الجزائرية نذكر: محاولة عبد القادر حاج حمو بعنوان "زهرة امرأة" صدرت سنة 1925، وروايتي " مأمون"-1925- و" العلج أسير بربروسا"-1929- لشكري خوجة، ورغم بساطة معمارها الفنّي إلاّ أنّها كانت على نهج الرّواية الطبيعية لدى إيميل زولا، تلتها محاولات أخرى على مدى فترات زمنية متباعدة نسبيا بمعنى لم يكن النتاج الروائي بالفرنسية حافلا نظرا للظّروف الصّعبة التي عاشها الروائيون الجزائريون تحت وطأة الاستعمار ، وهذا ما أدى إلى خلخلة المعمار الفنّي للرّواية الجزائرية بشكل عام، إذ تداخل مع أجناس أدبية أخرى كالقصة، ولعلّ خير

مثال ندلّل به هو رواية "إدريس" للكاتب علي الحمامي المكتوبة سنة 1942 م فهي أقرب إلى فنّ القصة منه إلى الرّواية.

أما بعد ويلات الحرب العالمية الثّانية المتمخضة عن انتشار المد الثوري / التّحرري كان للرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية شأن آخر خاصة مع بداية الخمسينيات من القرن الماضي، فقد بدت أكثر صحوا ونضجا من كِلا الجانبين الفنّي والموضوعاتي، فمن الجانب الفنّي أضحت أكثر وعيا بمقتضيات الفن الرّوائي كما عرفه الغرب، أما من النّاحية الموضوعاتية يمكن الجزم بالقول وضوح علاقتها – أي الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية- بالهوية الجزائرية التي تُمثل خطا أحمرا، ومُقوّما لا يقبل البديل أو المساومة، ومن بين فرسان هذه المرحلة نذكر عن كثب: الكاتب مولود فرعون صاحب رواية " ابن الفقير" **" Le files de pauvre"** الصادرة سنة 1952، والتي تُصور عدة جوانب ترتبط ارتباطا وثيقا بعادات وتقاليد المجتمع القبائلي، كما تحوي مشاهد مفعمة بالصّراع من أجل البقاء والتّحرر من وطأة المستعمر.

أما في رواية "الأرض والدّم" فإنّ مولود فرعون ينقلنا إلى عالم أشدّ وقعا على أنفس الجزائريين الذين لم يضمدّوا بعد جراحهم تجاه أرضهم السّليبة فإذا بفاجعة أخرى تُصيبهم، هي التّهجير إلى أوروبا بحثا عن عمل يسدّ رمق الجوع، وفي خضم هذه الأزمة المشحونة بمرارة الغربة، يفكّر المهاجرون في العودة إلى الوطن، هي عودة من نوع آخر ليست للقاء الأحبة ولكن لأرضنة وأقلمة الذّات في موطن الهوية من جديد، فعامر الذي شاء له القدر أن يعود إلى وطنه، يشعر بالغربة تجاه قريته الصغيرة، يقول الراوي: " هكذا يعود عامر إلى موطنه رفقة زوجته الفرنسية الشابة، بعد أن اشتغل سنوات عدة في فرنسا، وجرب كل أنواع الحرمان، التي كانت من نصيب المغتربين في أوروبا لكنه لا يستطيع مدة طويلة، أن يتأقلم مع حياة قريته الصغيرة، التي بدت له مختلفة ومتوحشة، واحتاج إلى عامين كي يصبح قبائليا من جديد"[3].

يبدوا أن شخصيات مولود فرعون أكثر انفتاحا على الآخر الممثل في زوجة عامر الشابة ذات الجنسية الفرنسية، والتي توحي إلى التّزاوج والتّواؤم الفكري بين الجزائريين والفرنسيين، وعطفا على ذلك يتّضح لنا قدرة الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية على استيعاب الآخر من حيث احتواؤه على الصعيد المحلي والعالمي.

إضافة إلى المنجزات الرّوائية للكاتب مالك حداد الذي كان يمقت الكتابة بلغة العدو ولكنه كتب إحباطا لمشاريعه، من بين رواياته نذكر: " رصيف الأزهار لا يجيب" **Le quai aux fleur ne répand plus**، - 1961- " سأهبك غزالة" و" الشقاء في خطر".

يكاد الإجراء الإحصائي يغور أثناء عدّ الرّوايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ومع ذلك لا نستطيع تجاوز الروائي محمد ديب الذي أرسى مشروعا روائيا تقدُّميا جسّد من خلاله الهوية الجزائرية المنطلقة والمتحررة / أزاحت الستار عنها رواياته المعروفة بالثلاثية " الدار لكبيرة" 1952 **La grande maison** - 1952- ، رواية " الحريق" **L'incendie** -1954-، رواية " النول" **Le métier a tissé** -1957-، حيث تمثلت ثلاثية محمد ديب تقنية الرّؤية من خلف حقّ تمثيل كونها رسمت " صورا مختلفة لناس بمختلف اتّجاهاتهم وهي تمزّق الأقنعة عن وجود أولئك الذين يمثلون الطبقات المستغلة، كما أنّها تكشف بذلك عن وُجود الأبطال الإيجابيين المناضلين"[4].

2.2 الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية؛ رهانات الاستمرار بعد جلاء الاستعمار:

بعد جلاء الحقبة الاستعمارية تكون الجزائر قد ولجت مرحلةً جديدةً يُفترض بها أن تكون أكثر خصوبةً وديناميةً نظرا لتوفر المادة الخام القابلة لإعادة التّكرير، غير أنّ الذي لوحظ على السّاحة الأدبية غداة تحقيق الاستقلال يُمكّن وصفه بصمت يلوذ بالتّواري، خاصة في مجال الأدب المكتوب باللّغة الفرنسية، فكُتّابنا لا زالت علاقتهم باللّغة الفرنسية غريبةً وغامضةً نوعا ما، ومما زاد الطّين بلةً وضعُ اللّغة الفرنسية المرفوض والمستهجن من قبل جمهور القّراء الذين لم تتجاوز نسبتهم " 08 بالمائة من الجزائريين"[5]، علاوة على أنّ نصف هذه النّسبة فقط يتقنون اللّغة الفرنسية.

لقد أدى الوضع الأدبي المأزوم غداة الظّفر بالاستقلال إلى انسحاب ثلة من كتاب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، يأتي على رأسهم مالك حداد الذي ألح " على الكتاب الجزائريين المنتمين لجيله (...) أن يتخلوا عن أماكنهم للكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللّغة العربية، ولم يصدر أي عمل إبداعي في فترة الاستقلال إلى أن توفي سنة 1978"[6].

كذلك انتاب "كاتب ياسين" نفس الشّعور أدى به التّنحي جانبا عن الكتابة باللّغة الفرنسية، أما الأديبة آسيا جبار فقد أصابها هي الأخرى وابل العدوى تجاه اللّغة الفرنسية إذ صرحت قائلة:" كان منفانا الأول لغويا، وكان ذلك منذ عهد الصبا"[7].

أمام هذا المنظور السوداوي الرؤية يقف محمد ديب رمز الإرادة والعزيمة إذ راح يستلهم قضايا فنّية أضحت هوس القرّاء على الصّعيد العالمي، ويتجلى ذلك في جنوحه إلى الكتابة التّجريدية الرّمزية التي جعلته " يبتعد في رواياته شيئا فشيئا عن الجزائر زمنا ومكانا وشخوصا، حتى بلغ أقصى حدود الاغتراب في أعماله الأخيرة، أي في – ثلاثية الشمال- التي جعل مسرح أحداثها يدور في أقصى شمال أوروبا – فنلندا-، وبهذا اكتسب أدب محمد ديب طابعا عالميا universel لا يختص ببلد معين، ولا يُوجّه إلى قارئ بعينه، وإنّما إلى قارئ عامي مفترض"[8].

يُعَدّ محمد ديب ظاهرةً متفردةً، أو نقطةَ انعطاف في مسار الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، فقد عملت منجزاته على إذكاء لهيب الصّمت الذي جثم على الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية غداة تحقيق الاستقلال مما جعلها تتنفس الصعداء، و يتجلى ذلك في نماذج روائية نخص منها بالذكر:

* رواية " التطليق" **La répudiation** - -1969- لرشيد بوجدرة، حيث تطرقت إلى استهجان التّصرفات اللاأخلاقية الصادرة عن المسؤولين، كما كشفت عن آثار الأقدام السّوداء التي طبعتها الثورة في نفوس المجاهدين.

* رواية " النهر المحول" **le Fleuve détourné**صدرت سنة 1982 للكاتب رشيد ميموني، تروي أحداثا وثيقةَ الصلة بالثّورة الجزائرية كونها تسعى إلى استرجاع الذّاكرة الوطنية الضّائعة في تلافيف ويلات المستعمر الفرنسي التي تسببت في فُقدان ذاكرة بطل الرواية – مصلح الأحذية- جرّاء انفجار قنبلة، وبعد مضي خمسة عشر سنة شاء القدر أن يستعيد البطل ذاكرته، فراح يبحث عن ماضيه، عن زوجته الحامل، عن ابنه وليد الاستقلال.

الجدير بالذّكر في هذا المقام أنّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ظلّت روحا عدائيةً مسكونةً بهاجس الصّراع والمقاومة والصّد والرّفض، وكأنّ ويلات المستعمر مُنبّه لا يتواني عن شحن الرّوائيين الجزائريين بوابل الثّورة، ودليل ذلك مواكبة الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية للأحداث السّياسية التي عرفتها الجزائر منذ أكتوبر 1988 إلى حين انفراج الأزمة.

ومن بين هذه الرّوايات التي رافقت العشرية السّوداء المخضّبة بدم الجزائر نذكر رواية " طومبيزا" Tombézaصدرت سنة 1989 للكاتب الرّاحل رشيد ميموني، الرّواية صورة صادقة عن الثالوث الرّهيب الذي نهش مخالبه في صدور الشعب الجزائري في عزّ الاستقلال، ويتّضح ذلك من خلال المعاناة التي عاشها البطل إثر وفاة أمه بعد تعرضها للاغتصاب، حيث تفيض رواية " طومبيزا" بالزّخم الرّمزي المُكنى عن الجزائر بالأم المغتصبة.

تُمثل ياسمينة الخضرا خطوةً تقدميةً في مجال الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، وذلك راجع إلى غزارة نتاجها الذي يُعدّ نقلةً نوعيةً، من بينها رواية " أبيض مزدوج" **Double blanc** الصادرة عام 1998، رواية " خريف الوهم" **L'automne des chimères** ، رواية " خرفان المولى" **Agneaux Seigneur** -1998-، رواية بم تحلم الذئاب" - **A quoi revers les loups** -1999-، رواية "الكاتب" **Lecrivain**- 2002-، رواية " كابل" **Les hirondelles de kaboul** -2002-.

ما يُحسب لهذه الرّوايات أنها تُرجمت لعدة لغات، مما أهّل الرّوائية ياسمينة الخضرا إلى وُلوج صرح العالمية من دون إمساك للدفاتر الجمركية " وقد عَدّها الروائي -كوتيزي الحائز على جائزة نوبل- من الأصوات المتفردة في عصرنا الحالي، يمكن القول من خلال ما سبق أن ياسمينة الخضرا صنع شهرته العجيبة في الغرب قبل الشرق، وعرفته أوروبا قبل أن تعرفه العرب"[9].

3.**الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، بين الواقع والمأمول:** لا يخفى على الباحث وضوح معالم الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية زمن الحقبة الاستعمارية، حيث كانت نابضةً من روح الواقع الجزائري انطلاقا من وقع عناوينها (ابن الفقير، أيام قبائلية) لمولود فرعون، " الدار لكبيرة" لمحمد ديب، " نجمة" لكاتب ياسين...، كما أنّها موجهة لضرب المشاريع الاستدمارية المتوخية مسخ وطمس الهوية الجزائرية، وعليه فإنّ توسلها للّغة الفرنسية أمر خارج عن نطاق الكتاب الجزائريين بحكم أنّ المستعمر الفرنسي فرض لغته باعتبارها لغةً رسميةً، علاوة على فرضه لسياسة إجبارية التّعليم الفرنسي، وفي ظل هذه الأوضاع الصّعبة وجد الكتاب الجزائريون أنفسهم مضطرين للتّعبير باللّغة الفرنسية كونهم لا يملكون بديلا ، هذا ما جاء على لسان الكاتب مالك حداد: " إنّ ما يفرق بين الكتّاب الأهالي والمستوطنين ليس المواقف السّياسية، ولكنه الحنين إلى اللّغة الأم (...) التي فُطمنا عنها وأصبحنا أيتامها بلا منازع"[10] .

فرق شاسع إذًا بين كاتب ينتمي إلى اللّغة الفرنسية روحا وقاموسا، وبين كاتب آخر يستعمل اللّغة الفرنسية، أو بالأحرى يُؤسلبها لتأثيل هويته، ومع ذلك يشعر بغربة تُجاهها، وهذا دليل قاطع على أنّ الكتّاب الجزائريين لم يتوخوا اللغة الفرنسية في ذاتها منها ومن أجلها إليها، مما جعلهم يقفون على مسافة فاصلة تنمّ عن اختلاف هويتهم وتفردها بالمقارنة إلى نظائرهم من الكتّاب المستوطنين المتعاطفين مع القضية الجزائرية بالرّغم من أنّ اللّغةَ والغايةَ واحدةٌ، وعليه لا نكون مجانبين الصّواب إذا قلنا " أنّ هناك فرقا شاسعا بين غابريال أوديسيو وجان عمروش، وبين روبليس وديب، وجول روا وكاتب ياسين، وروجي كوريل وآيت جعفر، بالرّغم من حقيقة أنّهم جميعا يكتبون بالفرنسية"[11].

لا شك أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية بصمةٌ من بصمات الجزائر / روح تسكن الجزائر كونها وليدةَ ظروفٍ صعبةٍ كادت تُطيح بالكيان الجزائري ككل من هوية ودين وعرق ولغة، لذا راحت في مرحلة متقدمة تهُدّ اعتبارات الكتابة باللّغة الفرنسية وتُعيد نسجها وَفق منوال اللّغة العربية من تقديم للمفعول وتأخير للفاعل...، بمعنى الخروج عن المألوف في اللّغة الفرنسية، مما جرّ غموضا لدى المتلقين الفرنسيين أثناء تعاطيهم للرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية – كما قلنا سابقا- .

وهذا ما يؤكّد مرةً أخرى على أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية جنسٌ أدبيٌ مُتفردٌ، يلوح في الأفق متجاوزا الأفضية الجغرافية المحلية ليفتح مجال التّلاقح الفكري مع الآداب العالمية، ومما ساعده على ذلك تلك المرجعيات الفكرية والفنّية التي اكتسبها الأدباء الجزائريون جرّاء ترويهم من معين الأدباء الغربيين أمثال فيكتور هيغو، وغبريال ماركيز... .

وبهذا تكون الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قد حققت طفرة نوعية تمثلت في تأثيل انتمائها إلى البيئة الجزائرية ومن ثَمّ الخروج من مأزق الهوية، كما تمكنت من الالتحاق بركب الآداب العالمية حيث خلقت جمهورها الافتراضي بعيدا عن إشكالات اللّغة ومسارات الآيديولوجيا.

4. الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بين التّأصيل والتّغريب:

قبل الخوض في إشكالية الهوية التي عرفتها الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ينبغي علينا ضبط مصطلحي الانتماء والتّغريب في حدود اشتغال البحث:

1.4 مفهوم الانتماء:

يصعب تحديد مفهوم جامع مانع للانتماء كونه رهينَ المجاذبات الآيدلولوجية والمرجعيات الفكرية، فالانتماء السّاسي يختلف عن الانتماء الدّيني أو اللّغوي...، وعليه يمكن القول أنّ الانتماءَ وليد خصوصية ثقافية فردية مفتوحة على المطلق " فبينما تعني عند شخص ما مجرد الانضمام إلى مجتمع معين، نجدها تعني التّفاعل والتّلاحم والشّعور بالقوة والطمأنينة عند شخص آخر"[12].

ينم الانتماء عن معانٍ متعددةٍ ومتشابكةٍ، وذلك راجع إلى اختلاف الحقول التي بيّأت مصطلح الانتماء وَفق مرجعيات متباينة فلسفية، دينية، اجتماعية، ومع ذلك نجد جلّ المعاني المتمخضة عن الانتماء متشابكة، فهي تصبّ في نبط عام يتمثل في الانتساب " فعندما نقول هذا عربي، فمعنى ذلك أنّه ينتمي إلى العرب، فهو جزء منهم وإليهم ينتسب، وهذا معناه أنّ له خلفية ثقافية فكرية تستمد إطارها ومضمونها من تاريخ العرب وثقافتهم ومقومات حياتهم بطابعها المتميز والمحدد بطريقة معينة(...) فمن شروط الانتماء أن يكون المنتمي ممن ينتسب عرقيا إلى المجتمع، وأن يكون ممثلا لأفراده ثقافيا وفكريا"[13].

يتّضح لنا من خلال هذا المفهوم عدّة أطر وجب أخذها بعين الاعتبار حتى نتمكن من الإفراج عن المعنى الدّقيق والمتوخى للانتماء، أولها:الانتماء انتساب لا إرادي كونه انتسابا عُرفيا إلى مجتمع ما؛ ثانيا: يتحدد الانتماء ضمن مُقوّمات الحياة الثّقافية والفكرية، دون الإحالة على المُقوّم اللّغوي، بمعنى الانتماء اللّغوي يندرج خارج الانتماء المعرفي والثّقافي والفكري، فعلى سبيل المثال توجد بالجزائر ازدواجية لغوية (عربية – أمازيغية)، وأيًا كانت اللّغة المستعملة فإنّ النتاج الأدبي الذي يكتبه الأدباء الجزائريون ينتمي إلى البيئة الجزائرية.

وعليه يُمارس الانتماء وجوده بوصفه " جزءا من جماعة يمكن أن تدافع عنه ضدّ المجهول سواء كان هذا المجهول قوة معادية أو ظروفا قاهرة، أو أي شيء آخر، فالانتماء يُوفّر للإنسان الاستقرار النّفسي والطمأنينة التي تجعله لا يشعر بالقلق أو الخوف وتعطيه بالتّالي القناعة، وهذا كلّه يساعد على جعل تفكيره يتّجه إلى الأمام ويعمل بشكل سوي ملتزم بمبادئ جماعته وقناعتها، الأمر الذي يساعده على أن يكون إنسانا منتجا"[14].

كفل هذا المفهوم حقيقة الانتماء المجافي لكلّ ما من شأنه تكريس الغايات الآيديولوجية المتوخية ترويج المعادلة السالبة للانتماء، حيث عانت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في خضمّها من أزمة حادة تمثّلت في صعوبة الإقرار بانتمائها إلى أدب معين، جزائري/ فرنسي، وخاصةً في ظلّ استمرار الكتابة الرّوائية باللّغة الفرنسية غداة تحقيق الاستقلال، مما زاد في تأزم الإشكال المنوط بهذا النّوع من الأدب الذي كان بالأمس رهينَ

جدلية الرّوح واللّغة في كنف الأوضاع الاستعمارية الصّعبة، أما اليوم فقد أضحى الإشكال من قبيل الحدود الجغرافية المتنازع عليها بين الدّول المستقلة.

لذا يروم البحث تتبع الإشكالية منذ نشأتها في كنف الحقبة الاستعمارية، وذلك من خلال تطارح نماذج روائية جزائرية مكتوبة بالفرنسية حتى تتّضح الرؤية أكثر.

من المعروف عن الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أنّها لم تنشأ من فراغ، ولم تكن وليدة الكتابة من الدّرجة صفر، وعليه يمكن القول أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية جاءت استجابةً لعدّة عوامل من أهمها تشجيع الحركة السّياسية الوطنية على الكتابة باللّغة الفرنسية، وقد كان فرحات عباس " أول من فتح النّقاش في هذا الباب، وكرّس استعمال صفة الفتى الجزائري في أدبيات الحركة الوطنية في فترة العشرينيات والثلاثينيات، كدلالة على الجيل الجديد من المثقفين الجزائريين، من خرجي المدرسة الفرنسية، وذلك في مقولات متفرقة له نشرها في الصحف ما بين 1922 و1930، ثمّ جمعها ونشرها سنة 1931 في كتاب بعنوان " الفتى الجزائري" (...) وقد جسّد شكل الكتاب " الفتى الجزائري" أرضيةَ النقاشِ الذي شغل روائيي هذه الفترة وأهم الطروحات الفكرية الرّئيسية الّتي حاولوا أن يجسدوها عن طريق الفنّ الروائي، وقد انطلق فرحات عباس في كتابه المذكور من الدّفاع عن مبدإ المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأوروبيين"[15].

كان للكتاب فرحات عباس أثر بالغ في الروائيين الجزائريين، يتجلى ذلك بشكل بارز في رواية " ابن الفقير" لمولود فرعون، والتي تنصبّ أحداثها في مجرى العدالة والمساواة بين الجزائريين والأوروبيين.

إذا كانت رواية " ابن الفقير" تندرج عموما ضمن مطالب الحركة السّياسية الوطنية لفرحات عباس، فإنّ ثلاثية محمد ديب كانت أكثر ارتباطا والتزاما بنوازع الطبقات الدّنيا للمجتمع الجزائري التي يُهددها الثالوث الرهيب لقد استطاع محمد ديب أن يُحمّل اللّغة الفرنسية مسؤوليةَ الدّفاع عن الجزائريين المضطهدين على أرضهم السّليبة، كما يُحسب لثلاثية محمد ديب أنّها سبّاقة إلى " طرح تساؤلات محدّدة وصريحة عن الهوية الوطنية، وعن مفهوم الوطن، وعن الهوية الحقيقة للجزائريين"[16].

تُعدّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية إذًا ابنا بارا صامدا في وجه الغياهب التي عصفت بالهوية الجزائرية محاولةً اقتلاعها من جذورها، لذا كانت ولازالت الروايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية " وسيلةً للكفاح لإعادة القيمة للذّات المنكسرة المهزومة والمهمشة إنّها كتابة هدفها تحويل الجزائر إلى هامش والهامش إلى مركز"[17]

وعليه فإنّ ثنائية الهامش والمركز تتجاوز إشكالية اللّغة الّتي روّج لها بعض الأدعياء بهدف ضرب الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في هويتها، ذلك أنّ اللّغةَ بصفة عامة – كما سبق لنا القول- ليست حكرا على أحد، فهي مطواعة لمن وَسِعه مخاضها فعزّته في الخطاب، من هذا المنطلق يرى الباحث مراد بوربون " أنّ اللّغةَ الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين، وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إنّ أية لغة تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطاوعها للخلق الأدبي"[18].

كما أنّها من جهة أخرى تتجاوز الحدود الجغرافية والقومية توخيا لوجود مطلق، لذلك قيل اللّغة بيت الوجود، تُحقّق مأربها من خلال الكتّاب بغض النّظر عن انتماءاتهم، ووَفقا لهذه الرؤية الثيو لغوية توسّل الكتّاب الجزائريون اللّغة الفرنسية بغية الانفتاح على العالمية، والعمل على تدويل القضية الجزائرية الّتي تعاني الاضطهاد في صمت ما كان له أن يكون في ظلّ وجود منظمات عالمية تُكرّس المثالية الإنسانية.

إنّ الحديثَ عن الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هو في حقيقة الأمر حديث عن " كل كاتب اختار أن ينتمي إلى الأمة الجزائرية"[19]، بكيانه وجوارحه حتى ولو كان لسان حاله ناطقا بالفرنسية، فكثيرا ما عملت اللّغة الثانية على تأثيل القومية.

ويتجلى ذلك بوضوح وصدق فنّي في الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسة، حيث حملت على عاتقها صدّ المحاولات الفظيعة والممارسات المحظورة التي قام بها المستعمر الفرنسي قصد طمس الهوية الجزائرية من عرق ولغة ودين...، كذلك تفرّغت لوصف معاناة الشّعب الجزائري وَفق رؤية مرآوية مُستمدة من الواقع الجزائري المرير، مما دعا بعض النّقاد الفرنسيين إلى الإقرار بأنّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هي " رواية عربية مترجمة إلى الفرنسية لأنّها كانت تحمل بصدق آلام هذا الشّعب، فمن العيب ضرب هذه الإنجازات الأدبية الّتي أوصلت قضية الجزائر إلى خارج الحدود المحلية"[20].

لقد أسعفت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية الرّوائيين في التّعبير عن مكنوناتهم تجاه قضايا مسّت الشّعب الجزائري في هويته، فكانت أدبا قوميا جزائريا بامتياز، هكذا صرّح الأديب محمد ديب ونبرة الأمر تملأ فاه " قولوا إنّ أدبنا قوميا يظهر الآن في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة"[21].

يتجلى البعد القومي بوصفه مشروعا يذود عن موطن الانتماء الجغرافي بغضّ النّظر عن الانتساب اللّغوي فكثيرا ما يستفيد المحارب من أسلحة العدو وخططه وسياسته، وذلك بعد أن يُحوّرها ويجعلها تعتمل ضدّ ذاتها، هذا ما حدث للّغة الفرنسية، فقد أضحت على لسان الكتّاب الجزائريين والقول لمولود معمري عيارات نارية يُطلقها المناضل " على الآخرين، وفي الإمكان أن نطلق العيارات النارية بواسطة القلم هذا حال الكاتب الجزائري"[22].

إذا كان مأمول الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أثناء الحقبة الاستعمارية التشبّث بكلّ ما له علاقة بالوطن (هوية – دين - عرق– أعراف – تقاليد-)، فإنّ حالها بعد الاستقلال لا يكاد ينفصل عن أمسها، حيث استمرت في استلهام مواضيع تتعلق بكفاح الشعب الجزائري ضدّ المستعمر الفرنسي، ذلك أنّ روحَ الثورة ما زالت تسري في عروق جيل الاستقلال، ما يُلاحظ أيضا على الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية زمن الاستقلال انتقالها من كتابة الوعي إلى وعي الكتابة المتمخض عن التّفنن في استثمار اختبارات اللّغة الفرنسية من جهة وتطوير معمارية الفنّ الرّوائي من جهة أخرى.

ورغم هذا التّطور الفنيّ المشهود له إلاّ أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية ظلّت حبيسةَ رؤيةٍ ضيّقةٍ كونها تحلّ حيثما حلّ العطب الإنساني، لذا لم يجد النّقاد حرجا في وسمها بالرّواية الظّرفية المتمخضة عن الصّراع الآيديولوجي، ودليل ذلك مواكبة الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية لمجريات الحقبة الاستعمارية، وكذا مرافقتها لأحداث العشرية السّوداء منذ مظاهرات أكتوبر 1988إلى غاية انتهاء الأزمة، وبين الحدثين فترة صمت عدا نماذج قليلة.

المعروف عن الرّواية بصفة عامة مجاراتها لأحداث العصر المتمخضة عن صراع الوجود، فالصّراع والآيديولوجيا إن صحّ التّعبير هما أهم مرتكز للرّواية نظرا لعدم وجود رواية بريئة، غير أنّ الذي يُميّز الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية مبالغتها في التّطرق إلى الواقع المأزوم، وإيلائه منزلةَ الصدارة إلى درجة أنّ عناوينُها تصدح بالصّراع، علما أنّ لهذا الانكباب المرآوي على الواقع ما يُبرّره، ويتجلى ذلك في الروايات الآتية:

* رواية " شرف القبية" **Lhonneur de la tribu** 1989، لرشيد ميموني، رواية " حزام الغولة" **ceinture de l’ogresse** 1990، رواية "رأس المحنة" **Ras Elmahna** 1991- لعبد الرحمان الوناس،

رواية " تيميمون" **Timimoun** 1991 لرشيد بوجدة، رواية " اللّعنة" **Malédiction** 1993، لرشيد ميموني رواية " بماذا تحلم الذئاب" **A quoi rêvent les loups** 1999، لياسمينة خضرا.

أسفر الإجراء الإحصائي عن احتفاء الرّواية الجزائرية ذات اللّسان الفرنسي بالتّعبيرات المحلية انطلاقا من رتل العناوين، الّتي تُعدّ ترجمةً حرفيةً مقصودةً، مما يجعلها أشطّ ارتباطا بالمقوّمات الجزائرية، وتأثيلا للانتماء الجزائري.

وعودا على بدء لم تخلو الرّوايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية زمنَ الحقبةِ الاستعماريةِ من التّعابير المحض جزائرية و الّتي من بينها: قول محمد ديب في رواية " الدار لكبيرة" "دير الخير تلقاه، أخرج الرّبي عريان يكسيك" وعلى نفس النّهج سار مالك حداد في روايته "التّلميذ والدرس" حيث احتفت بتعابير المجتمع الجزائري المتناصة مع الفلكلور الشعبي الجزائري من قبيل: " الضمير الهاني مخدة مريحة"[23]، " رقصة الفالس"[24]، " التي فات مات"[25] LIFET MET ، " لاباس" Labasse.

ومن أجمل ما قاله "مالك حداد" دفاعا عن القومية الجزائرية " نحن نكت الفرنسي ولا نكتب بالفرنسي[26]".

إنّ تضمينَ الرّواية الجزائرية للتّعابير المحلية يكشف عن موئلين اثنين، أولهما: تأكيد البعد القومي والانتصار للهوية الوطنية، أما المأمول الثاني: فيتعلّق بالرّغبة في ولوج صرح العالمية الثّقافية، ويتجلى ذلك في لجوء الرّوائيين الجزائريين إلى تقنية تهميش التّعابير المحلية الصادرة عن الموروث الثقافي، وإيرادها وَفق التّرجمة الأدبية كي يضمنوا لرسالتهم الوصول، وحتى تزداد رواياتهم مقروئية على المستوى المحلي والعالمي.

علاوة على التّعبيرات المحلية نجد أسماءَ الشخصيات في الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية مختارةً بعناية فائقة خاصةً شخصية البطل والشخصيات الرئيسية، فهي مستمدة من المجتمع الجزائري والإسلامي فعلى سبيل المثال يُطالعنا محمد ديب في ثلاثيته "الدّار الكبيرة" و"الحريق" و "النّول" بأسماء من طراز جزائري أمثال: محمد أم الخير، حميد سراج، عيني...، كذلك فعل مولود فرعون مع شخصياته المحورية حيث جعلها أشدّ ارتباطا بالقاموس الجزائري للحالة المدنية: عامر، رحمة، ذهبية... .

حظيت الرّوايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية بدراسة نقدية جادة اتّخذت من اقتحام العقبة اللّغوية إيذانا بحرب القلم، لقد أدرك الرّوائيون الجزائريون في مرحلة متقدمة أنّ ما يُميز الآلة الكاتبة عن الورق المكتوب هو أثقال الكتابة وروحها، فمن يُقاتل والقول لكاتب ياسين " لا يسأل نفسه ليعرف إن كانت البندقية التي يستعملها فرنسية أم ألمانية أو تشيكية، وإنّما بندقية وهي سلاحه، وهي لا تخدم إلا معركته،(...) إنّ الفرنسية ليست سوى أداة لتوصيل أفكارنا إلى المثقفين في العلم لتجذب لنا المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرنا العربية"[27].

إنّما أفصح عنه كاتب ياسين يوعز بصورة مباشرة إلى التّأثر والتّأثير بين الآداب العالمية المفعمة بشعور الحرية والتّحرر، خاصة وأنّ المستعمر الفرنسي لم يكن آنذاك يمنع قراءة مثل هذه الأعمال الأدبية المكتوبة أو المترجمة إلى الفرنسية لأمثال مالارميه (Mallarmé)، فاليري (Valérie)، فرجينيا وولف (VERGINIA Woolf)، فولكنر (Faulkner)، دوس باسو (Dos Passos)، ستانباك (Steinbeck)، همنغواي (Hemingway)

عضّد مولود فرعون ما كان يدعو إليه مالك حداد من استعمال اللّغة الفرنسية كسلاح لمحاربة الغزو الثّقافي والعقائدي الّذي تشيع له المستعمر الفرنسي بشتى الأساليب، ففي حديث له أكّد مولود فرعون حرصه على استعمال اللّغة الفرنسية توخيا للخروج من مأزق الهوية: " أكتب بالفرنسية وأتكلّم بالفرنسية لأقول للفرنسيين أني لست فرنسيا"[28].

راح مولود فرعون ينفي الشّواغل عن الهوية الجزائرية بأسلوب ناصع شبيه إلى حدّ ما بصنيع جاك دريدا (Jacques Derrida)حين همّ بتأثيل انتمائه " أنا يهودي لا يهودي بالطبع"[29]. نفى جاك دريدا انتماءه من حيث تأكيده، لأنّه يعلم جيدا أنّه تفسّح في الكتابة بعدّة لغات، وهذا ما سيضع نصوصه محل اتّهام قومي.

وبالجملة لم يكن أدباؤنا شغوفين بالتّعبير الفرنسي سواء أثناء الحقبة الاستعمارية أو بعدها، وإنّما الذي هالهم إلى ذلك هو تصعيد القضية الجزائرية خارج أسوارها فليس يُجدي نفعا التّعريف بانشغالات الواقع الجزائري المأزوم للجزائريين كونهم أدرى بحالهم، كما أنّ المستعمر الفرنسي كان في غنى عن التّنويه بالقضيّة الجزائرية لأنّ ذلك لا يخدم أطماعه بالمنطقة.

وبالرّغم من أنّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كشفت عن الممارسات المحظورة التي تعرض لها الشّعب الجزائري طيلة فترة تُقارب قرنا من الزمن، كما تمكّنت من نقل الواقع المنهوك إلى فضاء صحي إلا أنّها تعرضت إلى ضربات وانتقادات كادت تُزوبع هويتها، وهذا ما سيتكفل بتطارحه الجزء المتبقي من البحث.

2.4 مفهوم الاغتراب:

ورد مصطلح الاغتراب لدى العرب والغرب وَفق معان متجاورة تومئ إلى الملمح ذاته، وهو النّأي عن الوطن حيث يرى ابن فارس في الاغتراب "بُعدا عن الوطن، يُقالُ غَرَبَتْ الدّار، ومن هذا الباب غروب الشمس، كأنّه بعدها عن وجه الأرض"[30]، يتحدّد الاغتراب إذًا بوصفه من قبيل المشخص العياني المنوط بـ " النّزوح عن الوطن كالغربة والاغتراب والتّغرب"[31].

إذا نأينا قليلا عن المعاجم اللّغوية المجاورة للمعاجم البلاغية، نجد الاغتراب مُنزاحا بعض الدّلالة عما ألفته المدارج اللّغوية، ويتّضح ذلك انطلاقا من معجم أساس البلاغة، إذ جعل الاغتراب بموازاة المخرج البعيد، يقول الزمخشري:" وكانت للزرقاء عين غَرْبَه أي بعيدة المخرج"[32].

كلّما تشرّبت الدّراسة من معين الاغتراب إلاّ وأرست على مَرصد البحث من حيث المدخلات والمخرجات فبالإضافة إلى دلالة الابتعاد عن موطن الهوية/ ملاذ الذّات وأُنس رجيعها المرهون بماض وحاضر يتكّرر ضمن اللّحظة الزّمنية نفسها، ألفينا الاغتراب Aliénare لدى الغرب يَحيك دلالة يقتضي بموجبها " نقل ملكية شيء إلى آخر "[33]، وأخطر من ذلك " الانتزاع أو الإزالة، وهذا الفعل مستمد بدوره من كلمة أخرى هي Alienus أي الانتماء إلى شخص آخر أو التعلق به"[34].

يحتاج مثل هذا التّصور إلى مساءلة جادة، إذ كيف للاغتراب المنافي للتأثيل، والمجافي للإنسانية المثالية أن ينمّ عن الانتماء لشخص آخر؟!، ألا يجدر بالاغتراب التّشبث بالمبادئ والهوية بدلا من التّعلق بشخص آخر والارتماء في أحضانه؟.

يكتسي الاغتراب دلالةً مطاطيةً انسيابيةً مكّنته من التّغلغل في حقول دلالية متباينة، وغير متكافئة دلاليا رغم أنّه واحد في هيئته،فهناك الاغتراب السّياسي / الاجتماعي / الدّيني / اللّغوي...، وعليه يتحدّد الاغتراب بعدّه بديلا موضوعيا للانتماء فحين يغترب الجزء عن الكلّ، والذّات عن الموضوع، والفرد عن الجماعة يظلّ يسكنه هاجس منافي لسطوة الانعتاق والضياع، " مما يجعله يحسّ بالحاجة إلى الثورة والخروج عن المألوف كي يستعيد هذا الكيان وتلك الشخصية"[35].

وضمن هذا السّياق المدجج بمُنزلقات الآيديولوجيا نستجلي محورين متعاكسين للاغتراب، يرتبط الأول بتغريب المنجز الفعال، وخلعه بطريقة مقصودة تبتغي تغييب إمكاناته، ويقترن المحور المعاكس بإلهاب وابل الاستمرار والمقاومة كلّما وُجدت محاولات التّغريب.

هكذا ينبغي علينا فهم الاغتراب بعدّه انفصالا موكلا بالتّلاحم وفرط الانتماء، مع الإقرار بوجود صراع حاد ملازم لطرفي الثنائية الضّدية الأنا والآخر، سواء داخل النّموذج أو خارج دائرة الانتماء.

وعودا على بدء يُعدّ توماس هوبر T.H Hobbes من الفلاسفة الأوائل المشتغلين على حقل الاغتراب، ناظرين له بمنظور ضيّق الرؤية، إذ جعلوه يُحيل على " خلل يمكن أن يعتري الذّات الإنسانية (...) بسبب وقوع خلل في إبرام العقد الاجتماعي من قبل أفراد البشر، وينتقلون بموجبه من الحالة الطّبيعية إلى حالة المجتمع المدني"[36].

غالبا ما تكون البدايات ضعيفة لأنّها تعتمد بصورة مباشرة على مرجعيات وخصوصيات قد تكون نسبيةً إلى حدّ بعيد أو خاطئة بعض الشيء، ويتّضح ذلك في تصور توماس للاغتراب؛ ألاّ يُعدّ الانتقال من الحالة الطّبيعية للأفراد إلى حالة المجتمع المدني انتقالا سلسا وسليما؟، فأين الخلل في ذلك؟، أليست الحالة الطّبيعية تقتضي وُجود مجتمع مدني؟.

يُحاول جان جاك روسو J.J Rousseau تجاوز العثرة التي وقع فيها توماس الذي غفل عن ربط الاغتراب بالتّضحيات الجسام في " سبيل هدف نبيل وكبير، كقيام المجتمع أو دفاعا عن الوطن"[37].

أما هيجل Higel فقد نضّد مفهوما مثاليا للاغتراب حيث جعله بموازاة الآخر (النّقيض) ابتغاء مناهضته ومن ثَمَّ احتوائه، ذلك أن الاغترابَ لدى هيجل " أمرٌ ضروريٌ، يدرك الرّوح من خلاله ذاته بالحلول في نقيضها الآخر وعلى الرّغم من أنّ هذا التّخرج يسبب لها الآلام والمعاناة إلاّ أنّ ذلك يجعلها تُعبّر عن حريتها بالعودة إلى الذّات من جديد"[38].

يتّحدد الاغتراب إذًا على مدى وعي الذّات بالطّرف الآخر الدّافع إلى الاغتراب، مما يُحيل الاستجابة إلى ردود أفعال من جنس المنبه.

وعطفا على ما سبق تعرضت الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية إلى محاولة التّغريب، حيث أُثيرت شكوك حول أصالة هويتها، ويتّضح ذلك في الشّعور بالغربة اللّغوية التي أحسّ بها عديد الرّوائيين الجزائريين وهم يكتبون باللّغة الفرنسة مما دفعهم إلى التّصريح " لقد كان منفانا الأول لغويا"[39].

لقد انتاب هذا الشّعور القاتم "كاتب ياسين"، فلطالما نظر إلى اللّغة الفرنسية نظرة استهجان كونها سببا في قطع الأواصر بينه وبين أمه فقد أحس بـ" قطع السرة مرة أخرى"[40]، فاختار إنهاء " روايته المضلّع النّجمي بهذه العبارة: وهكذا فقدت أمي وفقدت كلامها في آن واحد، وهما الكنزان اللّذان لا يقبلان الاستلاب، ومع ذلك فقد استلبا مني"[41].

أما الرّوائي مالك حداد فقد ظلّ هاجس الغربة يسكن روحه مما أدي به إلى التّوقف عن الكتابة باللّغة الفرنسية غداة تحقيق الاستقلال، أيضا كان موقف مالك حداد من الأدب المكتوب بالفرنسية واضحا " فلم يعدّه أدبا قوميا littérature nationnale أصيلا، كما هو الحال بالنسبة للأدب المكتوب باللّغة العربية"[42]، ويذهب مالك حداد إلى أبعد من ذلك فقد نفي " تسمية هذا الأدب بالرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية (...) وقد عبّر عن هذا الرفض في حوار له أجرته معه جريدة " لاكيسون" التونسية، بتاريخ 1927/01/06 وأعطى له اسما آخر قلبه رأسا على عقب ليصبح " الأدب الفرنسي ذو التّعبير الجزائري"[43].

كما أنّ الكاتب مالك حداد يعترف بأنّ الذي دفعه إلى الكتابة باللّغة الفرنسية هو المستعمر ذاته حيث يقول: " لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار أن يكون عندي هذا النّقص، لا أستطيع أن أعبر بلغتي"[44]؛

بما أنّ المستعمر الفرنسي يقف وراء الكتابة باللّغة الفرنسية، فمعنى ذلك أنّ الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هي أحد تجليات المد الاستعماري وتجسيدا لإرادته ولو بشكل نسبي.

أيضا ألفينا بعض الروائيين أمثال مولود فرعون يستهينون بالتّقاليد والأعراف الجزائرية مقابل الانبهار بتقاليد غربية، والإقرار بسياسة الاندماج التي مسّت الجزائريين في هويتهم، ويندرج ضمن " هذا السياق رواية " ابن الفقير" لمولود فرعون (...) حيث يلتقي كاتبها مع كُتّاب هذه المرحلة في منطلقاتهم الفكرية، أي في الإيمان بمبدإ سياسة الاندماج، والتّعايش مع الأوروبيين والأهالي، (...) وفي الإشارات القليلة التي وردت في الرواية عن الإسلام لم يُظهر فرعون ما يدل على أنّه يوليه أية أهمية باعتباره مُقَوّما أساسيا للشخصية الجزائرية"[45].

هناك مُعوّل آخر لا يُمكننا تجاوزه وهو عدم قدرة الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية على خلق جمهورها خلال مسيرتها الطّويلة أثناء مرحلة الاستعمار والاستقلال، وذلك بالمقارنة مع الرّواية الجزائرية المكتوبة بالعربية وهذا ما هالنا إلى طرح الإشكال الآتي:

إما النّظر إلى الرّواية الّتي كتبها الجزائريون باللّغة الفرنسية على أنّها ذات جنسية فرنسية، وإمّا اعتبارها وليدةَ ظروفٍ صعبةٍ مرتبطةٍ بمرحلة استثنائية، وبالتّالي ينتهي هذا النّوع من الرّواية بانتهاء مبررات قيامه.

هناك حجج أخرى اعتمد عليها النّقاد في إنكار انتساب الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية للأدب الجزائري ، مُعتدّين باللّغة كمُقوّم مؤثل للهوية، ففي نظرهم لن يصبح هذا الجنس الروائي جزائريا " إلاّ بعد أن تُصبح اللّغة الفرنسية لغة وطنية في الجزائر"[46].

وحتى نكون موضوعيين أكثر ارتأينا تطارح آراء بعض النّقاد الغربيين حول إشكالية الهوية التي انكّبت على الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية فأردتها مرّةً جزائريةً، وكرّةً أخرى فرنسيةً، أو تطارحتها ضمن رؤية ازدواجية.

يرى النّاقد Jean Dejeux أنّ الأدبَ المغربيَ المكتوبَ بلغة أجنبية هو أدب مغاربي صرف " وسيظلّ الكاتب المغربي باللّغة الفرنسية يمثل مغرب اليوم في ثقافته وتحولاته، وتساؤلاته على الرّغم من كونه يحمل البصمة الأجنبية في كتاباته"[47].

وعلى نفس المنوال أدلت النّاقدة Arnaud بدلوها "ففي نظرتها إلى هذا الأدب، في اعتبارها أنّ الأدب المغاربي – ذوي اللّسان الأجنبي- بما أنّهم يشتغلون في الحقل نفسه الذي نعمل فيه، فهم أقرب منا إلى الكتّاب العرب المعاصرين أمثال طه حسين، وتوفيق الحكيم، والطيب الصالح"[48]. وعليه تتوخى الباحثة أرنود دمج الأدب المغاربي ضمن الأدب العربي حتى تزداد هويتُه نصاعةً.

بعيدا عن الأحكام المعيارية المُجانبة للرؤية النّقدية الموضوعية، تُعدّ الرّوايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية حلقةَ وصلٍ في تاريخ الأدب الجزائري، وذلك نظير استقاء مادتها الخام من البيئة الجزائرية، كما رافعت بصدق عن الهوية الجزائرية، حيث أشاد بها الباحث محمد الطّمار بقوله المتصدر للتوكيد " إنّ الأدب الفرنسي اللّغة أدب وطني صادق، صوّر كفاح الإنسان المستعمَر"[49]، كما استطاع نقل معاناته وانشغالاته خارج وطنه.

5. خاتمة:

توصل البحث بعد التّطارح والتّحليل إلى جملة نتائج نعرضها عن كثب:

يُمكن القول بلا مواربة أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية بقدر ما جارت الواقع الجزائري المأزوم وضمّدت جِراح الهوية بقدر ما تطلّعت إلى ولوج الصّرح الفنّي العالمي للرّواية ويتجلى ذلك في ما يلي:

- بما أنّ الرّوايةَ الجزائريةَ المكتوبةَ بالفرنسية ظهرت كرد فعل على السّياسة الاستعمارية المتوخية طمس الهوية والمعتقد والدّين، فهذا دليل على انتمائها للهوية الجزائرية بغضّ النّظر عن توسلها للّغة الفرنسية الّتي جعلتها أكثر انقرائيةً على الصّعيد العالمي.

وبهذا تكون الرّوايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية وافرةَ الحظين، حيث تفنّنت في التّعبير باللّغة الفرنسة ومن ثَمّ التّطلع إلى الرؤية الثّقافية العالمية، علاوة على لفت الانتباه إلى ما يعيشه الشعب الجزائري من حصار وضغوطات في المرحلتين معا سيان قبل الاستعمار أو بعده.

ومن الجدير بالذّكر في هذا المقام الإقرار بفضل الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كونها أسست قاعدةً خصبةً لنظيرتها المكتوبة بالعربية، وذلك من حيث البعد الفنّي والموضوعاتي والإشهاري.

أما من حيث المصطلح فقد استطاعت الرّوايةُ الجزائريةُ المكتوبةُ بالفرنسية فرض توليفتها المصطلحية التي لقيت رواجا بالمقارنة إلى المصطلحات الأخرى كالأدب الفرنسي المكتوب بالعربية...، وبما أنّ المصطلح مفتاح يُمكّن من الولوج إلى الجنس الأدبي المُتوَقّف عليه، فهذا يؤكّد من جهة أخرى انتماء الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية للأدب الجزائري كنسبة النّقطة إلى محيط الدائرة.

ومجمل القول: تبقى الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية مَكسبا يُعتدّ به للأدب الجزائري رغم تباين الآراء واختلاف المرجعيات.

6. الإحالات:

[1] أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيو نقدية، دار ميم للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص41.
[2] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المطبعة الوطنية للكتب، ط1، الجزائر، 1983، ص 249.
[3] مولود فرعون، ابن الفقير، تر: نسرين شكري، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2014، ص69.
[4] سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، (د.ط)، بيروت، لبنان، 1976، ص146.
[5] أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، الجزائر، 2023، ص166.
[6] المرجع نفسه، ص 167/166.
[7] المرجع نفسه، ص170.
[8] المرجع نفسه، 167.
[9] رفيقة سامحي، التناص في رواية خرفان المولى، لياسمينة الخضرا، دروب للنشر والتوزيع، (د-ط)، لبنان، 2018، ص24.
[10] المرجع نفسه، ص160.
[11] المرجع نفسه، ص 159.
[12] حسن منصور، الانتماء والاغتراب، دار أمواج للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2014، ص17-18.
[13] المرجع نفسه، 18
[14] المرجع نفسه، ص19.
[15] أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، ص 95.
[16] المرجع نفسه، ص 102-103.
[17] حفناوي بعلي: إشكالية الهوية بين ضفتي المتوسط (قراءة في كتاب الرواية بين ضفتي المتوسط) مجلة أصوات الشمال، www.Aswat.elchamal.co
[18] واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ط)، الجزائر، 1986، ص70.
[19] جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار ميم، ط1، الجزائر، 2013، ص35.
[20] واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص71.
[21] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، 1982، ص137
[23] مالك حداد: التلميذ والدرس، تر: شرف الدين شكري، دار ميديا بلوس للنشر،(د-ط)، قسنطينة، 2009، ص59.
[24] المرجع نفسه، ص67.
[25] المرجع نفسه، ص139.
[26] جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص77.
[27] عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار جيل، (د.ط)، بيروت، لبنان، 1991، ص157.
[28]أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص162.
[29] يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، قسنطينة،2007، ص 81.
[30] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج4، دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، ص421.
[31] اليروز آبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، (د.ط)، (د.ت)، ص119.
[32] الزمخشري،أساس البلاغة، ج1، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1998، ص697.
[33] حسن حماد،الإنسان المغترب عند أري فروك، دار الكلمة، (د.ط)، مصر، 2005، ص61.
[34] يحيى عبد الرؤوف عبد الله: اغتراب الشخصية الروائية، دراسة في روايات الطاهر بن جلون، مذكرة ماجيستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤته، الأردن، 2004، ص04.
[35] عمر، أحمد مختار عبد الحميد،معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، دار عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، 2008، ص1602.
[36] ميساء نبيل عبد الحميد، الغربية والاغتراب في روايات (غائب طعمه فرمان)،www.alnaqed_aliraqi.net
[37] زكي نجيب محمود، هذا العصر وثقافته، دار الشروق، ط1، بيروت، لبنان، 1981، 173.
[38] محمد ابراهيم الفيومي، ابن باجة وفلسفة الاغتراب، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1988، ص62.
[39] أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، ص170.
[40] المرجع نفسه، ص 169/168.
[41]المرجع نفسه، ص169.
[42] المرجع نفسه، ص 162
[43] المرجع نفسه، ص163.
[44] محمد خضر سعاد، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، (د.ط) بيروت، لبنان، (د.ت)، ص205
[45] أحمد منور، الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، ص100.
[46] المرجع نفسه، ص135
[47] ينظر: J.dejeux,situation de la littérature maghrébines de la langue français algér.opu1982p184
[48] ينظر: Arnaud .j , l'alittérature de langue français , paris, t2, le cas de kateb yacine , publisud, 1982, p606.
[49] محمد الطّمار، تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة، (د.ط)، 2007، ص383.

7/ قائمة المراجع:

1/ أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دار الساحل، (د-ط)، الجزائر، 2023.
2/أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيو نقدية، دار ميم للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
3/ عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المطبعة الوطنية للكتب، ط1، الجزائر، 1983.
4/ واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ط)، الجزائر .
5/ زكي نجيب محمود، هذا العصر وثقافته، دار الشروق، ط1، بيروت، لبنان، 1981.
6/ الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1998.
7/ حسن حماد، الإنسان المغترب عند أري فروك، دار الكلمة، (د.ط)، مصر، 2005.

8/ حسن منصور، الانتماء والاغتراب، دار أمواج للنشر والتوزيع، (د-ط)، بيروت، لبنان، 2014.
9/ حفناوي بعلي، إشكالية الهوية بين ضفتي المتوسط (قراءة في كتاب الرواية بين ضفتي المتوسط) مجلة أصوات الشمال، www.Aswat.elchamal.com
10/ يحيى عبد الرؤوف عبد الله، اغتراب الشخصية الروائية، دراسة في روايات الطاهر بن جلون، مذكرة ماجيستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤته، الأردن، 2004.
11/ يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2007.
12/ ميساء نبيل عبد الحميد، الغربية والاغتراب في روايات (غائب طعمه فرمان)، www.alnaqed_aliraqi.net
13/ محمد ابراهيم الفيومي، ابن باجة وفلسفة الاغتراب، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1988.
14/ محمد خضر سعاد، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، (د.ط) بيروت، لبنان.
15/ محمد الطّمار، تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة، (د.ط)، 2007.
16/ مولود فرعون، ابن الفقير، تر: نسرين شكري، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2014.
17/ مالك حداد: التلميذ والدرس، تر: شرف الدين شكري، دار ميديا بلوس للنشر، قسنطينة، 2009.
18 سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، (د.ط)، بيروت، لبنان، 1976.
19 / عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، 1982.
20/ عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار جيل، (د.ط)، بيروت، لبنان، 1991.
21/ عمر، أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، دار عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، 2008.
22/ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج4، دار الفكر، (د.ط)، (د.ت).
23/ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، (د.ط)، (د.ت).
24/ رفيقة سامحي، التناص في رواية خرفان المولى، لياسمينة الخضرا، دروب للنشر والتوزيع، لبنان، 2018.

25 J.dejeux,situation de la littérature maghrébines de la langue français algér.opu1982.
26 Arnaud .j , l'alittérature de langue français , paris, t2, le cas de kateb yacine , publisud, 1982,